جماعة الأزهر للنشر والتأليف

كتاب الإرشاد

إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد

لإمام الحرمين الجويني

٤١٩ - ٤٧٨ هـ

حققه ، وعلق عليه ، وقدم له ، وفهرسه

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ في كلية أصول الدين
بالأزهر

علي عبد المنعم عبد الحميد
المدرس في الأزهر الشريف
معهد القاهرة

الناشر
مكتبة الخانجي
١١ شارع عبد العزيز — مصر

ويطلب من مكتبة المثنى ببغداد

Ǧuwainī

Iršād

جماعة الأزهر للنشر والتأليف

كتاب الإرشاد

إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد

لإمام الحرمين الجويني

٤١٩ - ٤٧٨ هـ

حققه ، وعلق عليه ، وقدم له ، وفهرسه

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ في كلية أصول الدين
بالأزهر

علي عبد المنعم عبد الحميد
المدرس في الأزهر الشريف
معهد القاهرة

الناشر
مكتبة الخانجي
١١ شارع عبد العزيز — مصر

ويطلب من مكتبة المثنى ببغداد

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

مطبعة السعادة بمصر
١٩٥٠

استهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاهو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام .

أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا .

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير .

فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير .

إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

تقديم

روح العصر — المؤلف — رأى فى دراسة علم الكلام — الكتاب

إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى ، صاحب كتاب « الإرشاد » الذى نقدمه اليوم للقراء ، عاش حياته كلها فى القرن الخامس فى ظل الدولة العباسية . علينا إذاً ، قبل أن نتكلم فى هذا التقديم عن الكاتب والكتاب ، أن نجلو فى إيجاز صورة هذا العصر الذى عاش فيه من الناحيتين السياسية والعقلية[1] وذلك لنعرف ما قد يكون للبيئة التى اضطرب فيها من أثر فى نتاجه العلمى ، ومن هذا النتاج كتاب الإرشاد .

روح العصر

١ — كان اصطناع المعتصم بالله الخليفة العباسى (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) للأتراك ، يرجو بهم المنعة والعزة ، مؤذناً ببدء ظهور الضعف وزوال هيبة الخلفاء ، عند ما أحس هؤلاء الغلمان بأنهم عدة الخلفاء وقوتهم ؛ ومن ثم أخذوا فى الاستئثار بالسلطان ، حتى تحكموا فى الخلافة وأمورها والخلفاء وحياتهم .

وقد كان لهذا الضعف فى الخلفاء ، ولهذه المنزلة التى انحطت إليها الخلافة ،

---

(١) اعتمدنا فى رسم هذه الصورة على كتابنا : فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية (الطبعة الثانية صفحة ٥٨ وما بعدها) ، وعلى المراجع الأصيلة التى رجعنا إليها فيه .

الأثر الطبيعي المحتوم : استقلال كثير من أمراء الأطراف ، فكان من ذلك غير قليل من الدويلات كالحمدانية بالجزيرة ، والسامانية فيما وراء النهر ؛ وفساد كبير فى الإدارة جر إليه ضعف ولاة الأمور الشرعيين وشراهة أصحاب السلطان المتغلبين .

وكان من الطبيعي ، والأمر كما ذكرنا ، أن يكثر الجور ، وأن تنتشر الفتن ، وألا يجد أصحاب الآراء الضالة ما يمنع من إذاعتها والدفاع عنها ، وأن شعر الناس شعوراً واضحاً بالحرج والضيق لهـــذا كله ، وأن يحس أصحاب الكفايات الخاصة من العلماء شعوراً قوياً بما عليهم من واجب جدال أصحاب الباطل والدفاع عن الحق الذى يعتقدون .

٢ — ولكن إذا رأينا ضعف سلطان الخلفاء ، وفساد الإرادة ، وما إلى ذلك بسبيل من العوامل الأخرى ، قد جر إلى ضعف الأخلاق واضطراب الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، لارتباط هذا بذاك ، فلا يصح أن نفهم الأمر كذلك فيما يتصل بالحياة العقلية ، بل كان الأمر بالعكس . فقد كان ضعف الخلفاء ، وضياع سلطانهم ببغداد وما والاها ، وظهور كثير من الدويلات فى جسم الدولة الإسلامية — نقول ، كان هذا عاملا قوياً فى ازدهار العلم ، ومعاضدة الأمراء للعلماء فى تلكم الأيام .

حقيقة ، نستطيع أن نقرر بأن ذلك العصر كان أزهى العصور الإسلامية فى الشرق علما ، وأنه كثر فيه النبغة فى كل علم وفن . وهذا بعد أن أخذ المسلمون ، ومن أظلهم الإسلام برايته من غير المسلمين ، فى هضم العلوم والفلسفة الإغريقية والتفكير الهندى والفارسى ، وبعد أن مزجوا هـذا كله بالدين والثقافة الإسلامية ، فكان من ذلك ما يعرف فى تاريخ الفكر بالفلسفة الإسلامية .

ويكفى أن يحيل من يريد نظره فى «فهرست ابن النديم» ، و «تاريخ الحكماء»

للقفطى، و«طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة، و«تاريخ بغداد» لابن الخطيب، ونحو هذه المؤلفات من كتب التراجم، ليعلم أى عصر كان ذلك العصر فى العلم والعلماء!

والسبب فى هذا واضح التماسه ومعرفته. ذلك بأن الدولة العباسية عرف خلفاؤها بتشجيع العلم على اختلاف ألوانه، حتى النظر الحر والفلسفة؛ وحين جاء المتوكل ونهى عن النظر، وحجر على أرباب المقالات، صادف هذا التحول فى السياسة العلمية ابتداء ضعف سلطان الخلفاء، ثم تلاه تجزئة الدولة الإسلامية إلى دول صغيرة. وكان هذا من أسباب تنافس الأمراء فى تشجيع العلم، بل وفى تقوية نفوذهم بالعلماء والأدباء والنابغين. ويضاف إلى هذا أن هؤلاء العلماء والمفكرين كانوا يجدون حماة من أمراء تلك المماليك الناشئة، كما كان من الفارابى وسيف الدولة الحمدانى؛ وكان الواحد منهم إذا خشى على نفسه أميرا من الأمراء انتقل عنه إلى غيره، كما كان من ابن سينا(١).

٣ — وثمة سمة أخرى كانت مما تميز به ذلك الزمن. ذلك أن هذه البيئة، بلاد العراق وما إليها، بما اجتمع فيها من ثقافات أمم عديدة ومختلفة: العرب، فارس، الروم، اليونان، الهند، كانت تربة صالحة — أيما صلاح — لتزدهر فيها مذاهب مختلفة فى كبريات المسائل الدينية والمشاكل الفكرية. وكان من هذا أن صار لكل مذهب رؤساء ونصراء يتحزبون له إلى أقصى حدود التعصب، وأن أخذت هذه المذاهب تصطرع فيما بينها وتتنازع البقاء، وتثور من هذا فتن كبار كان لها ضحايا كثيرون وعجزت الدولة عن إخمادها فى أحيان غير قليلة.

---

(١) يرجع إلى «طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة ح ٢: ٥ — ٦، وإلى مزيج من الفلسفات اليهودية والعربية» للمستشرق مونك ص ٣٢٤ من الأصل الفرنسى، وإلى البارون «كارادى فو» فى كتابه: «ابن سينا» ص ١٣٩ — ١٤٠ من الأصل الفرنسى.

حقاً لقد كان فى ذلك العصر شيعة يدعون الناس لإمام اضطر للاختفاء وإليه يرجع العلم ومنه تلتمس المعرفة ؛ ومعتزلة يرفضون التقليد ، ويمجدون العقل ويرفعونه مكاناً عليا ؛ ورافضة يعملون على قلب كل نظام ، وجعل الناس فى أمر مريج ، ليصلوا وسط هذه الفوضى إلى الحكم والسلطان ؛ وفلاسفة غاية كدهم بث فلسفات لم تكن تهيأت لها العقول بعد كما يجب ؛ وحنابلة يتشددون فى غلو فى الدين ، ويثورون لهذا على السلطة القائمة حينا وعلى المتكلمين حينا آخر ؛ وبجانب كل هؤلاء جميعاً نجد الأشاعرة من المتكلمين الذين يرون أنهم وحدهم أهل السنة ، والقوام على دين الله وتأييده ، والدعاة للعقائد الدينية الحقة ، والباذلون أقصى الجهد فى الاستدلال لها وتمكينها من القلوب والعقول .

جمع الله فى هذا العصر عدداً كبيراً من نبغة العلماء فى الأصول والفروع والفلسفة والتصوف ، وغير ذلك من ألوان العلوم التى نمت وأخصبت فى ذلك العصر . وكان من احتكاك أصحاب المذاهب ، فى هذا العلم أو ذاك ، بعضهم ببعض ، ومن رغبة كل منهم فى نصرة مذهبه والإعلاء منه على حساب غيره ، أن كثرت المناظرات والجدل العلمى . وأن كان يحدث أحياناً غير قليلة فتن دامية . وجماع أسباب هذه الفتن هو العصبية فى غير حق ، وعجز الدولة عن الهيمنة على الأمر ، ثم نصرة بعض الخلفاء أو الأمراء لهذا المذهب أو ذاك على مخالفه .

٤ — من أولئك العلماء الأعلام ، نشير ، فى علم الكلام ، إلى القاضى أبى بكر بن الطيب الباقلانى المتوفى فى عام ٤٠٣ ، سيف السنة وأوحد وقته فى فنه . ويذكر ابن تيمية عنه أنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى ، وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده[١] .

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، طبعة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ حـ ٣ : ١٦٩

ومنهم القاضي عبدالجبار بن أحمد أبو الحسن الهمذانى المعتزلى المعروف ، صاحب التصانيف ، المتوفى عام ٤١٥ . ويقول عنه ابن قاضى شهبه فى طبقاته بأنه كان قاضى الرى وأعمالها وشافعى المذهب ، ومع هـــذا كان شيخ الاعتزال(١) .

ومنهم أيضاً أبو اسحق الإسفراينى(٢) ، ابراهيم بن محمد ، المتوفى عام ٤١٨ ، الأصولى المتكلم ، أحد الأعلام وصاحب التصانيف . كما كان شيخ اخراسان فى زمانه(٣) .

ومنهم الإمام الكبير والمفسر المعروف ، حجة المتكلمين ، أبو المظفر الإسفراينى المتوفى بطوس سنة ٤٧١ . ومن مؤلفاته التى نشرت حديثا بالقاهرة كتابه : التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، وذلك بعناية الأستاذ الجليل المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ؛ فقد عرف بالكتاب وترجم للمؤلف ، وعلق حواشيه .

وأخيراً ، فى هذه الناحية ، نذكر ابن المعلم المفيد أبا عبد الله محمد بن محمد ابن النعمان البغدادى ، عالم الشيعة وأمام الرافضة ورئيس الكلام والفقه والجدل ، ومن ثم كان يناظر إمام كل عقيدة(٤) ، وقد توفى عام ٤١٣ .

٥ ــ أما الفتن التى كانت تقوم كثيراً بين أهل السنة وبين الشيعة أو

---

(١) شذرات حـ ٣ : ٢٠٣

(٢) نسبة إلى إسفراين ، بليدة بناحية نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، خرج منها جماعة من العلماء فى كل فن . اللباب فى الأنساب لابن الأثير حـ ١ : ٤٣ من طبعة القدسى بالقاهرة عام ١٣٥٧هـ

(٣) نفسه حـ ٣ : ٢٠٩

(٤) نفسه حـ ٣ : ١٩٩ ـ ٢٠٠

الرافضة ، أو بين الحنابلة وبين عامة من يخالفونهم فى الرأى ، أو بين غير هؤلاء وأولئك من أصحاب المذاهب والمقالات ، والتى ماروع المسلمون بها إلا لضعف الخلافة وسوء الإدارة — أما فيما يتصل بهذه الفتن، فحسبنا أن نشير إلى ماذكره ابن العماد[1] إلى أنه فى سنة ٤٠٨ وقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والشيعة قتل فيها طائفة من الفريقين ، وعجز صاحب الشرطة عن الثائرين المتقاتلين . كما بعث فى العام نفسه الخليفة العباسى القادر بالله ، وكان صاحب سنة ، إلى السلطان محمود بن سبكتكين يأمره ببث السنة فى خراسان، ففعل ذلك فى مبالغة . نعم ، لقد بالغ حتى قتل جماعة ونفى كثيراً من خصوم أهل السنة ، أى من المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والجهمية والمشبهة ، كما أمر بلعنهم على المنابر .

بل إن هذا الخليفة القادر بالله ينزل بنفسه إلى معركة الخلاف بين المذاهب ، فيؤلف كتابا ينصر فيه مذهبا على آخر . لقد كان هذا الخليفة ديّنا يديم التهجد كما يقول ابن العماد ، لكن هذا لم يمنعه من أن يصنف كتابا فيه يكفر المعتزلة القائلين بخلق القرآن ؛ وكان هذا الكتاب يقرأ كل جمعة ، ويحضره الناس مدة من الزمن[2] .

٦ — من ذلك — ومثله كثير — نستطيع أن نتصور مقدار عناية كل صاحب مقالة أو مذهب بنصرة مذهبه تأليفا ومناظرة .

ونعرف أن حجة الإسلام الغزالى لما رأى استشراء الباطنية ، انبرى للرد عليهم ؛ كما أنه ، حين تحقق كثرة المذاهب والنحل ، حمل نفسه على الفحص عنها وبيان صحيحها من زيفها ، كما قص هــــذا بنفسه علينا فى كتابه المنقذ من الضلال .

---

(١) شذرات الذهب حـ ٣ : ١٨٦

(٢) نفسه حـ ٣ : ٢٢١ — ٢٢٢

لاجرم إذاً ، أن نجد إمام الحرمين يشعر بهذا الواجب ، ولا يقصر فيه ، واجب نصرة مذهبه مناظرة وتأليفا ، وأن يكتب فى هذا أكثر من كتاب . ومن هذه الكتب كان كتاب « الإرشاد » الذى رأينا من الخير إخراجه لدارسى علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، من الأساتذة والطلاب .

المؤلف

٧ — مؤلف كتاب « الإرشاد » هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى[١] . ووالده هو أبو محمد الجوينى عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه ، بمثناتين تحت : أولاهما مضمومة مشددة والثانية مفتوحة ، شيخ الشافعية . وابن شهبة فى طبقاته يذكر أنه كان يلقب بركن الإسلام ، وأنه كان إماما فى التفسير والفقه والأدب . وبلغ من ورعه وتقواه ، وجده ووقاره ، أن عبد الواحد بن أبى القاسم القشيرى صاحب الرسالة يذكر أن المحققين يعتقدون فيه من الكمال أنه لو جاز أن يبعث الله نبيا فى عصره لما كان إلا هو[٢] . وقد توفى عام ٤٣٨ .

هذا هو الجوينى الأب . أما الابن فهو أبو المعالى عبد الملك ، الملقب بضياء الدين ، النيسابورى ، والمعروف بإمام الحرمين .

٨ — وهو ، كما ترجم له ابن خلكان[٣] ، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعى على الإطلاق ، المجمع على إمامته ، المتفق على غزارة مادته وتفننه فى العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك .

---

(١) نسبة إلى « جوين » ناحية كبيرة من نواحى نيسابور تشتمل على قرى كثيرة وينسب إليها جماعة من العلماء أنظر شذرات الذهب لابن العماد فى ترجمة والد إمام الحرمين حـ ٣ : ٢٦١ ، واللباب فى الانساب لابن الأثير طبعة القدسى بالقاهرة حـ ١ : ٢٥٦

(٢) شذرات الذهب حـ ٣ : ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) وفيات الأعيان ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، حـ ١ : ٤٠٧ — ٤٠٨

تفقه فى صباه على والده أبى محمد ، وأتى على جميع مصنفاته ، وتصرف فيها حتى زاد عليه . ولما توفى والده أقعد مكانه للتدريس ، وهو فى نحو العشرين من عمره ، وهو مع ذلك من الأئمة المحققين كما يقول ابن تقى الدين السبكى(١) .

وتخرج فى هذا العلم ، علم الكلام ، على أبى القاسم عبد الجبار بن على الإسفراينى، تلميذ أبى اسحق ابراهيم بن محمد الاسفراينى، المتخرج على أبى الحسن الباهلى ، تلميذ إمام أهل السنة أبى الحسن الأشعرى(٢) .

ولما ظهر التعصب بين الفريقين : الأشاعرة والمعتزلة ، واضطربت الأمور خرج إلى الحجاز حاجا ، وجاور بمكة والمدينة أربع سنين يدرس ويفتى ، ولهذا قيل له إمام الحرمين . ثم عاد إلى نيسابور بعد أن استقرت الأحوال ، فى أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان ، والوزير يومئذ نظام الملك . فبنى له هذا الوزير المدرسة النظامية ، وأقعد للتدريس بها ، وبقى على هذا نحو ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع . وكان يقعد بين يديه لتلقى العلم نحوا من ثلثمائة من الائمة وأعيان الطلاب(٣) .

واستمر إمام الحرمين على هذه الوجاهة فى الدين والدنيا ، والرياسة فى العلم الاصول منه والفروع ، حتى لحق بربه عام ٤٧٨ عن تسعة وخمسين عاما ، إذ كانت ولادته عام ٤١٩ .

٩ — وقد ترجم له كثيرون ممن عنوا بالترجمة لأعلام الإسلام . منهم ، كما رأينا ، ابن خلكان فى وفيات الأعيان حـ ١ : ٤٠٧ – ٤٠٨ ، وابن السبكى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بالقاهرة ، حـ ٣ : ٢٥٢

(٢) الشيخ الكوثرى ، من مقدمته للعقيدة النظامية طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ صفحة ٦

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حـ ١ : ٤٠٧ ؛ وابن السبكي ، طبقات الشافعية ، حـ ٣ : ٢٥٢

في طبقات الشافعية الكبرى حـ ٣ : ٢٤٩ - ٢٨٢ ، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة حـ ٥ : ١٢١ من طبعة دار الكتب المصرية ، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب نشر القدسي بالقاهرة عام ١٣٥٠ هـ حـ ٣ : ٣٥٨-٣٦٢، والحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ٢٧٧ - ٢٨٥ ، نشر القدسي بدمشق سنة ١٣٤٧ . وغير هؤلاء مؤرخون كثيرون احتفلوا أيضاً بترجمته .

وليس هناك من فرق كبير بين المتقدم من هؤلاء المترجمين لإمام الحرمين والمتأخر ، إلا أن يكون زيادة بسط أو تركيز وإجمال . وكل هذه الترجمات تنطق بما كان له من وجاهة في الدنيا ، وجلالة في العلم ، حتى قلد رعاية الأصحاب ورياسة الطائفة .

١٠ — على أن ذلك لا يمنعنا من أن نورد هنا ترجمة صاحب كتاب «المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبي» ، وهو أحمد بن الملا الحلبي . وهذا الكتاب بالخزانة الأحمدية بحلب رقم ١٢١ ، والجزء الذي فيه الترجمة هو الثامن من الكتاب ونسخة حلب هذه بخط المؤلف نفسه . ونورد هذه الترجمة بعبارة المؤلف ذاته باختصار يسير في مواضع قليلة [1] قال ابن الملا :

إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية أبو المعالي . ابن الإمام أبي محمد الجويني الفقيه الملقب ضياء الدين ، رئيس الشافعية بنيسابور . قال أبو سعيد السمعاني : كان إمام الأئمة على الإطلاق ، المجمع على إمامته شرقاً وغرباً ، لم تر العيون مثله . ولد سنة تسع عشرة وأربعمائة في المحرم ، وتفقه على والده وأتى على جميع مصنفاته ، وتوفي أبوه وله عشرون

---

(١) أمدنا بهذه الترجمة النفيسة صديقنا الفاضل الأستاذ رشاد عبد المطلب بالإدارة الثقافية بأمانة الجامعة العربية . ويزيد في قيمتها أن الجزء الموجود من كتاب الذهبي بدار الكتب المصرية ليس فيه ترجمة إمام الحرمين . وقد نقلها الأستاذ رشاد بخطه عند ما كان بحلب ؛ فله خالص الشكر .

سنة فأقعد مكانه للتدريس . إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين واضطربت الأحوال ، واضطر للسفر عن نيسابور ، فذهب إلى المعسكر ثم إلى بغداد ، وصحب أبا نصر الكندري الوزير مدة ، يطوف معه ويلتقى فى حضرته بالأكابر من العلماء ويناظرهم ، وتحنك بهم حتى تهذب فى النظر وشاع ذكره . ثم خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ، يدرس ويفتى ويجمع طرق المذهب ، إلى أن رجع إلى بلده بنيسابور بعد مضى نوبة التعصب ، فأقعد للتدريس بنظامية نيسابور واستقامت أمور الطلبة ، وبقى على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحمة ولا مدافع ، مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس الوعظ يوم الجمعة . وظهرت تصانيفه ، وحضر دروسه الأكابر ، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلثمائة رجل . وكان مع تبحره فى الفقه وأصوله لا يدرى الحديث .

وقال فى كتاب الرسالة النظامية : اختلف مسالك العلماء فى الظواهر التى وردت فى الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها ؛ فرأى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن ؛ وذهبت أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى . والذى نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع . والدليل السمعى القاطع فى ذلك ، أن إجماع الأمة سنة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة . وقد درج أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك مافيها ، وهم صفوة الإسلام والمشتغلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد الملة ، والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس مايحتاجون إليه منها . فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة . فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك

قاطعا بأنه الوجه المتبع . فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ، ولايخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب ، وليجْرينّ الاستواء والمجيء وقوله : كما خلقت بيدى ، ويبقى وجه ربك ، وتجرى بأعيننا ، وماصح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره ، على ماذكرنا.

ولأبى المعالى من التصانيف : كتاب نهاية المطلب فى دراية المذهب ، وهو كتاب جليل فى ثمانية مجلدات ، وكتاب الإرشاد فى الأصول ، وكتاب الرسالة النظامية فى الأحكام الإسلامية ، وكتاب الشامل فى أصول الدين ، وكتاب البرهان فى أصول الفقه ، وكتاب غياث الأمم فى الإمامة ، وكتاب مغيث الخلق فى اختيار الإحق .

هذا ، وذكره الباخرزى فى دميته ، فقال : فالفقه فقه الشافعى ، والأدب أدب الأصمعى ، وفى بصره بالوعظ الحسن البصرى ؛ وكيف ماهو ، فهو إمام كل إمام . . . إلى آخر ماقال .

توفى أبو المعالى فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر عام ٤٧٨ ﻫ ، وكسر منبره فى الجامع ، وأغلقت الإسواق .

١١ — ومن هذه المراجع التى عُنيت بحياة أبى المعالى وتعرف نشاطه العلمى ومؤلفاته ، نستطيع أن نذكر من هذه المؤلفات :

١ — الشامل فى أصول الدين

٢ — الإرشاد ، وهو تلخيص طيب للشامل

٣ — العقيدة النظامية (١)

---

(١) نشرت بالقاهرة عام ١٩٤٨ بمطبعة الأنوار ، بعناية وتقديم العلامة الشيخ الكوثرى ، وفيها رجع عن آراء له ذكرها فى الشامل ثم فى الإرشاد .

٤ — نهاية المطلب في دراية [أو رواية] المذهب . وهو كتاب لم يؤلف في الإسلام مثله في رأى ابن خلكان وابن السبكي وابن العماد

٥ — البرهان في أصول الفقه

٦ — الورقات »

٧ — غياث الإمم في الأمامة

٨ — مغيث الخلق في اختيار الأحق (١) [أي في ترجيح مذهب الشافعي]

٩ — مختصر النهاية .

وزاد بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب العربي » كتبا ورسائل أخرى منها :

١ — اللمع في أصول الدين

٢ — رسالة في إثبات الاستواء

٣ — شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل .

٤ — هذا و نعتقد أن نبوغ إمام الحرمين، وكتابة ما كتب في علم الكلام بالطريقة التي رآها وسار عليها ، وبخاصة كتابيه : الشامل والإرشاد ، كان بداية عصر جديد في علم الكلام (٢) .

إن من أنصار مذهب الأشعري الأعلام، الذين عملوا على نصرة المذهب وإذاعته في مشرق الإسلام ومغربه ، الإمام القاضي الباقلاني الذي سبقت الإشارة إليه . هذا العالم الكبير ، الذي صار إماما للمذهب بعد أن تناوله بالتهذيب ، ووضع لمسائل العلم وقضاياه المقدمات العقلية التي تتوقف عليها

---

(١) نشر عام ١٣٦٠هـ — ١٩٤١ الشيخ الكوثرى رسالة لطيفة في الرد على هذا الكتاب، سماها إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق ، مطبعة الأنوار .

(٢) يسرني أن أذكر أنه بعد أن تكون لي هذا الرأى ، رأيت الشيخ العلامة الكوثرى ذكره من قبل في مقدمته للعقيدة النظامية صفحة ٣ — ٤

الأدلة ؛ وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لايقوم بالعرض ، وأن العرض لا يبقى زمانين . ثم بعد ذلك ، كان من هذا الإمام ، على ألمعيته ، أن جعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الدينية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة ـ فى رأيه ـ عليها ، ولأن بطلان الدليل يؤذن ـ فيما يقول ـ ببطلان المدلول (١)

وهكذا ضيق القاضى ومن معه على الناس ، ولم يوغلوا فى الدين برفق . وليت شعرى ماذا يرون فى إيمانهم أنفسهم قبل ذلك ، وفى إيمان الصحابة وعامة المسلمين الذين يجهلون هذه الأدلة من قبل ومن بعد (٢)

ولكن كان من حسن جد الإسلام والمسلمين أن نبغ ، بعد الباقلانى ، إمام الحرمين وتلميذه الأشهر أبو حامد الغزالى . لقد صار كل منهما إماما فى وقته للمذهب ، ولم يعتقدوا ومن تبعهم ـ كما رأى الباقلانى من قبل ـ بطلان المدلول إذا بطل الدليل ، وبهذا انفك الحجر عن الناس فى الاستدلال.

هذه الطريقة عرفت بطريقة المتأخرين ، ولا تزال متبعة حتى هذه الأيام فى دراسة علم الكلام . وهى تمتاز أيضا بإفساح مجال الرد فى مؤلفات هذا العلم على الفلاسفة ومن إليهم، فيما ذهبوا إليه مما لا يتفق والدين فى رأى المتكلمين ، وكان هذا سبب خلط مذاهب الفلاسفة بعلم التوحيد .

ويرى العلامة المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٦٩ ، وتبعه فى هذا الرأى خالنا العلامة المرحوم الشيخ حسين والى ، أن الغزالى أول من كتب فى علم الكلام على هذه الطريقة ، يعنى الطريقة التى تهدف أيضاً للرد على الفلاسفة ، وهذا رأى نعتقد أنه غير دقيق .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، صفحة ٣٦٩

(٢) الشيخ حسين والى كتاب التوحيد الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٠٩ م حـ ١ : ٤ م

إنه بالرجوع إلى بعض مؤلفات إمام الحرمين ، مثل كتاب الإرشاد ، يتبين أن الغزالى أفاد منها فى الرد على الفلاسفة فى المسائل التى أخذها عليهم فى كتابه التهافت . ويكفى أن ينظر الباحث فى مبحث القول فى العالم ومبحث إثبات العلم بالصانع ، ليعلم مقدار ما أفاد الغزل من شيخه وأستاذه فى الرد على الفلاسفة . وإذاً ، لايكون حجة الإسلام أول من أدخل فى مصنفاته فى هذا العلم الرد على ماذهب اليه الفلاسفة ولايتفق والدين فى رأيه . وأيضا لايكون صحيحا إذا مايقول فى كتابه المنقذ من الضلال : « ولم أر احدا من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك »[1] أى إلى دراسة الفلسفة ليعرف مافيها من فساد وغائلة .

على أننا لاننكر أن الغزالى كان هو المجلّى فى هذا الميدان . ويشهد له كتاباه الخطيران : مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة ، وما كان لهما من أثر قوى لايزال ملحوظا حتى هذه الأيام .

الكتاب

١٢ — وكتاب «الإرشاد» على ما نرى ، كتاب قصد منه مؤلفه إمام الحرمين بيان العقائد الدينية والاستدلال لها ، ثم الدفاع منها ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب المخالفة للدين ، هذه المقالات والمذاهب التى كان العالم الاسلامى فى زمنه يموج بها موجا ، وكل ذلك فى أسلوب قوى واضح ومركز فى غير تعقيد ؛ فليس بالمطول الذى يدعو للملل والسآمة ، ولا بالموجز فى مبالغة فيكون عنه لبس أو إبهام . وهو إلى هذا فيه من أصالة الرأى واستقلال الفكر ، مايجعله أحق بأن يدرس رسميا فى الأزهر من الكتب التى بيد الطلاب .

---

(١) طبعة دمشق سنة ١٩٣٤ ص ٨٣

وهنا أود أن ألفت النظر بصفة خاصة إلى أن هذا الكتاب ، شأنه في ذلك شأن الكتب ألفت في هذا العلم في ذلك العصر ، يعتبر بحق إحدى الصور التي تمثل لنا ذلك العصر والمجتمع الذي كان يحيا فيه ، والمذاهب والمقالات التي كانت تجد سبيلها للحياة والصراع في سبيل البقاء ، فهو كتاب حي يصور ناحية من نواحي الزمن الذي كتب فيه .

وقد شرح هذا الكتاب كما يذكر صاحب كشف الظنون ، تلميذ امام الحرمين أبو القاسم سلمان [أو سليمان] بن ناصر الأنصاري المتوفى سنة ٥١٢ هـ . ثم شرحه من بعده الإمام أبو اسحاق ابراهيم يوسف بن أوس المشتهر بابن المرأة . وهذا الشرح توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٦ توحيد وتاريخها عام ٧٣٩ هـ . وهو في خمسة مجلدات مجموع أوراقها قرابة تسعمائة صفحة ، ولا يشتمل كتاب الإمامة الذي هو آخر كتاب الارشاد .

رأي في دراسة علم الكلام

١٣ — وهنا أراني منساقا إلى التقدم برأي في علم الكلام ودراسته ، حسب الاوضاع التي نعرفها أيامنا هذه بالازهر .

علم الكلام ، كما يقول ابن خلدون في مقدمته ، « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » . أو بعبارة أخرى ، هو علم يهدف إلى بيان العقائد الدينية كما ورد بها الكتاب والصحيح من السنة ، وإلى الاستدلال لها ، والدفاع عنها ؛ وأخيراً إلى الرد على الفرق الضالة بما ذهبت اليه في هذه العقائد .

ومعنى هذا أن هذا العلم يجب أن يلاحظ فيه أمران :

١ — أن يقوم على أدلة تتناسب وعقليات من تتوجه اليهم من صنوف الناس المختلفة فى الفهم والادراك وطرق الوصول لليقين .

٢ — الرد على الفرق المخالفة لهذه العقائد ، الفرق التى لها وجود فعلا فى الزمن الذى نعيش فيه .

بعد هذا نقول :

إن الأدلة التى كان يحصل بها تسليم أو اقتناع فيما مضى من الأزمان ، قد لايحصل بها هذا فى الزمن الحاضر بعد تقدم العلم ، وبخاصة العلوم الطبيعية الذى لايسلم إلا بما يقع فى دائرة التجربة والاختبار .

وإن الشاب اليوم الذى ضم إلى ثقافته الشرقية أو الاسلامية طرفا من علم الغرب الطبيعى المادى ، ليس من العقل أو العدل أن نصطنع فقط فى الحجاج معه ما كان أسلافنا يصطنعون من الأدلة فى الجدل مع معاصريهم فى ذلك الزمن البعيد ، أيام كان الاسلام قوى الاسر وفى شدة عنفوانه .

ومن العجب والغرابة بمكان ، أن نعكف على جود قوم لا نكاد نحس لهم ركزا ، ونترك أمثال القاديانية والبهائية ولهم من النشاط الدينى ومن الدعاوة لمذاهبهم ماهو معروف فى أوربا وأميركا !

١٤ — إن على علماء الكلام أو التوحيد ، على الأزهر وكلية أصول الدين ، أن يطبوا لداء الإلحاد الذى يقوم كما يرى أصحابه ، على أساس من علم العصر والذى نراه استشرى بين كثرة من العلماء ومن الشبان المثقفين ثقافة علمية عالية . وإنى لأعرف عدداً كبيراً من هؤلاء الشبان ، عرفتهم فى باريس لندن وعرفتهم هنا فى مصر ، يقولون بأنه لم يقم لديهم الدليل على وجود الله ، ويرون أن تفسير الوجود أو العالم ميسور دون اللجوء إلى فرض وجود الله . وإذا سألتهم عن الشبهات التى قامت سداً بعينهم و بين اليقين بوجود الله ، وإذا

أخذت في الجدل معهم مستعيناً بكل ما عرفت من كتب علم الكلام وأدلتها في هذا السبيل ، لم تصل منهم إلى ما تريد ، وطالبون بأدلة تستند إلى حقائق أو مقررات العلم الحديث .

ولسنا نريد بهذا أن ندعو لعدم دراسة علم التوحيد ، ذلك بعيد أن يدور منا بالبال . بل المراد من هذا أن ندلل على وجوب تطور هذا العلم بوجه عام ، وذلك بأن نجدد فى كتبه أدلته ومشاكله وفى الفرق التي يرد عليها ؛ وحينئذ يكون أداة لابد منها ، أداة يكون منها خير كثير فى تثبيت عقائد الدين وهداية الضالين .

إن لكتب علم التوحيد القديمة قيمة تاريخية كبيرة فى تصوير العصور التي كتبت فيها ، وبيان جهود مؤلفيها — أسلافنا الأعلام — في التدليل للعقائد الدينية والرد على الزنادقة وأرباب المقالات الأخرى . وهي ، مع هذا كله تفيد الحاضر فى كونها بعض المراجع التي لايستغني عنها للتأليف فى هذا العلم . ولكن على أن تكون دراستها مقدمة ، ومقدمة فقط ، لدراسة أخرى تناسب روح العصر الحالى ومشاكله .

١٥ — هذا ، وقد كان نشر هذا الكتاب أمنية لى منذ سنوات طويلة وقد رغب فى ذلك وشجع عليه كثير من رجالات الأزهر المعنيين بالدراسات العقلية ، وبخاصة دراسة علم الكلام . وقد أراد الله أن يكون زميلي فى هذا العمل تلميذ الأمس وصديق اليوم الأستاذ الشيخ على عبد المنعم عبد الحميد المدرس بالقسم الثانوي بالأزهر . لقد عرفت هذا الأستاذ منذ كان طالباً بكلية أصول الدين ، وعرفت فيه حب الدرس والتماس المزيد من العرفان . كل ذلك فى خلق طيب ، وتواضع محمود ، وإخلاص نادر فى هذا الزمن ، مما جعله محبباً إلى زملائه وموضع تقدير عارفيه .

وقد اعتمدنا فى نشر هذا الكتاب على أربع نسخ[1] كاملة جيدة :

١ — نسخة المستشرق الفرنسى لوسيانى Luciani التى نشرها عام ١٩٣٠م بخط مغربى ، معتمدا على نسخة باريس ونسخة الجزائر ونسخة تونس . وهى فى ٢٤٤ صفحة من القطع الكبير .

وقد أثبت هذا المستشرق اختلافات النسخ كالمعتاد ، إلا أننا لاحظنا أنه يختار أحياناً نص نسخة ويترك نص نسخة أخرى هو فى رأينا أحق بالاختيار. وقد أشرنا إلى هذه النسخة بحرف « ل » .

٢ — نسخة دار الكتب المصرية رقم ٨١٩ توحيد . وهى بقلم معتاد بخط عبد الخالق بين أبى القاسم بن أحمد الأموى عام ٥٦٢ هـ ، فى ٢٩٨ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطرا . ومقاسها ١٣×٥ و ١٩ سم . وقد رمزنا لها بحرف «م»

٣ — نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، بخط مغربى واضح . رقم ١١٧٩ توحيد فى ١٠٨ ورقة ، ومسطرتها ٢١ سطرا ، ومقاسها ١٦×٢٢ سم . وقد وصلت إلى الدار عن مكتبة المرحوم أحمد الحسينى بك ؛ ولذلك رمزنا لها بحرف « ح » .

٤ — نسخة المكتبة الأحمدية بحلب ، رقم ٧٦٤ توحيد . وتاريخ نسخها سنة ٦٨٢ هـ . وهى فى ١٠٦ ورقة ، وبكل صفحة ٢٢ سطرا ، وبخط نسخى قديم ، وناسخها هو أحمد بن على بن محمد بن أبى السعود الحميدى . وعلى النسخة تمليكات أربعة ، وهى وقف على المدرسة الأحمدية ، وكان الانتفاع بها بفضل الإدارة الثقافية بأمانة الجامعة العربية بالقاهرة ؛ وقد رمزنا لها بحرف «ب» .

---

(١) على أن نسخة لوسيانى ، التى جعلناها أصلا ، تجعل النسخ التى رجعنا إليها ستا لا أربعا ؛ وذلك بما أثبتت من اختلافات النسخ الثلاث التى رجع إليها ، فجعلتها بذلك تحت أيدينا ، وأمكن لنا الموازنة بينها وبين النسخ الأخرى ، ثم الاختيار لما رأيناه الصحيح .

وقد اتخذنا أصلا لنسختنا، التي ننشرها اليوم، نسخة المستشرق لوسياني، وأثبتنا اختلافات النسخ الأخرى في نهاية كل صفحة، إذ لم نر من العدل أن نفرض اختيارنا على القراء.

ولما كان كثير من فصول الكتاب ليس لها عناوين مستقلة، فقد رأينا من الخير جعل عنوان لكل فصل، ووضعنا العنوان الذى يكون من عندنا بين معقوفتين هكذا [ ]. وكذلك كل ما كان موضوعا بين هاتين العلامتين يكون من عملنا الخاص، سواء في الصلب أو في الهامش. أما ما وضع بين علامتي التنصيص « » فهو من زيادة نسخة على غيرها أو نقص نسخة عن أخرى[1]. كما رأينا من الخير الترجمة للاعلام التي وردت بالكتاب، سواء أكانت أعلام أشخاص أو أماكن أو فرق كلامية أو فلسفية.

وهنا، يسرنا أن نذكر بجزيل الحمد والتقدير حضرة الاستاذ الكبير أمين بك مرسى قنديل المدير العام لدار الكتب المصرية، على أن تفضل بالاذن بتصوير نسخة من نسختى الدار وجعلها تحت تصرفنا، وبذلك تيسر لنا إلى حد كبير معارضة النسخ بعضها ببعض.

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وفي سبيل العلم، وأن يجعل منه خيراً كثيرا.

محمد يوسف موسى

الروضة	شوال عام ١٣٦٩ هـ أغسطس ١٩٥٠ م

---

(١) إلا في الفصل الخاص بأسماء الله الحسنى؛ فقد وضع كل اسم من الأسماء الكريمة بين علامتي تنصيص تمييزا له عن سائر الكلام، مع اتفاق النسخ كلها في ذكر هذه الأسماء طبعا.

مطبعة السعادة بمصر